الفصل الثامن

فيما يدل على ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته

وذلك من وجوه نقلاً وعقلاً. أما الدلائل النقلية فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ﴾ [الإسرَاء: 110] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] فالحسنى تأنيث الأحسن كالصغرى والكبرى للأصغر والأكبر، وقد قيل في وصف الأسماء بهذه الصفة: أنها دالة على معان حسنة وهي صفات الله تعالى، وقيل أيضاً: بأن المراد من الأسماء هنا الأوصاف الحسنة نحو الوصف بالوحدة والعز والجلال والعدل والإحسان.

ثم من اللوازم الاحتراز عن الوصف القبيح بما لا يصح أن يوصف به تعالى، فإن ذلك هو الزيغ عن سنن الصواب كما في قول النصارى بأنه جوهر[1] مثلاً.

وما يدل على فضيلة الذكر من الآيات، فذلك متعدد مثل قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 152] وغيره، قدم الذكر على الشكر في هذه الآية لما أن الذكر هو الاشتغال به لا غير، والشكر اشتغال به وبغيره، وذلك هو النعمة.

ثم الذكر قد يكون باللسان وقد يكون بالجنان، وذلك بأن يتفكر الإنسان في حقائق أوصافه ودقائق ألطافه، أو بأن يتفكر في أسرار حكمته حتى تظهر عليه أنوار عظمة حضرته، وقد يكون بالجوارح، وذلك بأن تكون الجوارح

(1) وهو ما يقبل التحيز. الحدود الأنيقة (1/ 71).

مستغرقة في الطاعة والعبادة، ولهذا سميت الصلاة ذكراً، قال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: 9].

وقد قيل في الذكر: إنه على سبعة أنواع: ذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالحمد والثناء، وذكر اليدين بالبذل والإعطاء، وذكر القدم بالجهد والوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضا.

وأما قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: 152] فلا بد من حمله على إعطاء الكرامات كالثواب والتعظيم والرضوان لأرباب الشريعة وأصحاب الحقيقة، ثم للناس فيه رغبات كما قيل:

(أذكروني) بالدعاء (أذكركم) بإعطاء الآلاء، (أذكروني) بالخوف والرجاء (أذكركم) بالأمن والعطاء، (أذكروني) بالصدق (أذكركم) بالرفق، (أذكروني) بالإنابة (أذكركم) بالإجابة، (أذكروني) بالمجاهدة (أذكركم) بالهداية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: 69] (أذكروني) بالشكر (أذكركم) بالزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، بالصبر (أذكركم) بجزيل الأجر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]

وعلى هذا في الغير من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البَقَرَة: 200]، فإن فيه من الوجوه ما فيه. منها: أن تذكروا كذكر الآباء لا كذكر الأولاد، فإن ذلك للشفقة وإنه مما يليق بالحضرة، ومنها: أن فيه إشارة إلى الذكر بصفة الوحدة، إذ الأب واحد ليس إلا، بخلاف الولد، ومنها: أن فيه إشارة إلى النظر في مبدأ الوجود، ومنها: إنه إشارة إلى الاستعانة به في المهمات، ومنها: أن الولد أبداً يكون رطب اللسان بمناقب أبيه، فيجب أن يكون كذلك بتسبيح الله ﷻ وتقديسه.

وأما الشواهد العقلية فنقول: إنه تعالى خلق الإنسان وأودع فيه قوة عقلية مَلَكية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية.

ثم إنه تعالى ألهمه معرفة الخير والشر فقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: 8] وأعطاها آلات بها تحصل القوة على إدراك المصالح والمفاسد فقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] وأقدره على الخير والشر فقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] ثم دفع عنه الحرج فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] وما كلفه إلا بقدر الوسع فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286] وإنما فعل ذلك كله إبتلاءً كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: 31]

ثم عمم هذا الحكم في حق الكل فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: 56] ثم بين كيفية ذلك التكليف فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5].

غير أنه ﷻ خلقه محتاجاً إلى التصرف في أمور معاشه ومصالح حياته، فلا يمكنه أن يواظب على العبادات في جميع الأوقات، فلا جرم ألزمه وظائف العبادات في أوقات مخصوصة على وجه التخفيف، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: 185] كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: 28] ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]

ثم إنه ﷻ جعل جميع البدن على ثلاثة أقسام:

أحدها: القلب وهو رئيس الجوارح ومحل العقل ومبدأ الفهم.

وثانيها: اللسان وهو آلة للعبارة عما في الضمير.

وثالثها: سائر الأعضاء.

ثم إنه تعالى عين لكل واحد منها نوعاً من الطاعة والعبادة مما يليق به، فعين الفكر للقلب، والذكر للسان، والسكنات والحركات للأعضاء والجوارح، ثم مدحها في محكم تنزيله، أما الفكر ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ

يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190-191] الآيات.

وأما للذكر ففي قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

وأما للحركات والسكنات ففي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 1-2] الآيات، وعلى هذا في الغير من الآيات الدالة على فضيلة الذكر والفكر والحركات اللازمة للأعمال الصالحة.

ولا خفاء في أن أسرار منازل هذه الأمور وأنوار مراتبها من جملة ما لا يمكن عدها وإحصاءها، فلا مجال للعاقل أن يطلع عليها كما هي هي، بل وإن كان يطلع على قدر منها فذلك على حسب الملازمة للذكر والفكر والمواظبة عليهما، ثم إنه تعالى كما صرح بالبعض من المصالح في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28] مثلاً، فقد صرح بالبعض من المفاسد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه: 124] الآية. والتصريح بالذكر يدل على التحريض، وفيه من الآيات والأخبار والآثار، لكن ذكرها لا يليق بهذا المختصر.

obeikandl.com